# المبحث الرابع

# المكان وأغراض أخرى

## ١ - المكان والرثاء.

الرثاء تعبير عن خلجات قلب حزين تجد فيه لوعة صادقة ومشاعر جياشة بالعواطف، إنه البكاء على كل شيء مفقود وعزيز على الإنسان سواء أكان مكانا أو إنسانا.

والرثاء غرض شعري قديم النشأة لجأ إليه الشعراء للتعبير عما يختلج في صدورهم من حزن ولوعة وتفجع، ومما لا شك فيه أن أصدق الرثاء ما كان صادرا من القلب، وما كانت الفجيعة فيه مؤلمة شديدة، وليس أشد من فجيعة ضياع المكان لا سيما إذا كان مكان الألفة.

فقد كان شعر الرثاء في الأندلس ((متابعا الأحداث ملاحقا المصائب مرافقا الكوارث، ومن ثم فقد كانت مسيرة هذا الشعر الحزين مسيرة تاريخية يسجل كل حادثة في زمانها ويبكي كل كارثة في وقتها))[١] فامتاز شعر الرثاء في الأندلس بميزة هي ((الإكثار من التفجع والتهويل والأحزان)) [٢] فجاء رثاء الشاعر الأندلسي لتلك الربوع والديار والمدن التي أصابها الدمار والخراب وأنتجوا لنا شعرا يكاد ينفرد الشاعر الأندلسي به ((فقد طبع هذا اللون من الشعر بطابع أندلسي خاص فعد أبرز معالم الشخصية الأندلسية وتفوق على شعر الرثاء بصورة عامة)) [٣].

فظلت تلك الديار والأماكن شاهدا حسيا على متغيرات تلك الحياة الإنسانية التي أصابها الدمار، وحل بها الخراب وذهب سكانها الأبرياء فجاء رثاء تلك الأماكن

---

(١) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ٥١٢.
(٢) اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ١٧٥.
(٣) الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧ هـ)، تأليف: الدكتور منجد مصطفى بهجت، نشر: دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٨م، ٣٠٤.

كتعبير عن خلجات نفس رأت بأم عينها تلك المآسي، فجاءت هذه الأشعار متصفة بصدق العاطفة وعمق التأثير وغزارة الدموع لكونها صادرة من نفس مسها الحزن والأسى.

والحق أن تلك الأماكن ظلت راسخة في الأذهان ولها ((حس أصيل وعميق في الوجدان البشري وخصوصا إذا كان المكان وطن الألفة ... ويزداد هذا الحس شحذا إذا ما تعرض المكان للفقد والضياع)) (١) فظل رثاء تلك الأماكن تعبيرا عن تلك العواطف الصادقة المتفجعة بالأسى، إنها إمكان الذكريات التي عانى فيها الإنسان وأجهد نفسه في تكوينها وتآلف معها فهي ((جزء من تكوين الإنسان لذلك بقي المكان لصيقا بالتاريخ وبالحضارة وشاهدا حسيا على التطور والتغير وسجلا أمينا لأفعالنا وأفعال من سبقونا)) (٢).

ومن هذا المنطلق يمثل المكان مستودعا لهذه الذكريات ويظل يوحي للإنسان بالفعل المبدع ويمده بالشحنات النفسية والوجدانية ويؤجج المشاعر في قول الشعر لعله يعيد له شيئا من التوازن بعد ذلك الفقدان، فجاء رثاء تلك الأماكن بصوت مؤلم بعد أن استوقفتهم تلك الأماكن ناظرين إليها متأملين فيها بعدما ((ذابت بين حنايا ها أعز الأيام واندثرت عند نؤيها وأحجار ها أحلى ذكريات الصبا وأيام الشباب)) (٣) فهذا عباس بن فرناس يرثي طليطلة عندما أصابها الدمار أيام الأمير محمد لما اشتد على أهلها فغزاهم واحتال في هدمها حيث قال:

أضـــحت طليطلـــة معطلـــة ... مـــن أهلهـــا فـــي قبضـــة الصـــقر
تركـــت بـــلا أهـــل تؤهلهـــا ... مهجـــورة الأكنـــاف كـــالقبر
مـــا كـــان يبقـــي الله قنطـــره ... أضـــحت ســـبيل كتائـــب الكفـــر (٤)

(١) جماليات المكان، اعتدال عثمان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م، ٥١.
(٢) إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٨٦م، ١٥٩.
(٣) وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية، ٩.
(٤) ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ١٥٩.

أما عبد الله بن محمد [١] فيصف لنا آثار تلك الديار بأسلوب شعري شجي ومؤثر حيث يقول:

ديار عليها من بشاشه أهلها ... بقايا تسر النفس أنسا ومنظرا
ربوع كساها المزن من خلع الحيا ... برودا وصلاها من النور جوهرا
تسرك طورا ثم تشجيك تارة ... فترتاح تأنيسا وتشجي تذكرا [٢]

إنه يعبر عن خلجات روحه القلقة الملتاعة بذهاب تلك الديار فيجد فيها تارة سروره وتارة أخرى تثير شجونه.

ومن الشعراء الذين رثوا الأماكن عبد الله المورواي الجزيري فيرثي مدينته بعد أن أصابها الدمار والخراب أثر غزو المجوس عليها حيث يقول:

لتبك لقتلاك العيون السواجم ... فقد عظم الخطب الخطوب العظائم
ألا إن فيض الدمع هاج همولـه ... رجال ثووا في الحرب صيد أكارم
إلى الله أشكو- لا إلى غيره -الذي ... دهينا به والله حنان راحم
ألمت بأبناء الجزيرة أمة ... مجوسية الأنساب مغر أشائم
فصدعت الشمل الجميع بفرقة ... إلى يوم بعث الحشر لا يتلاءم
فيا لصروف الدهر كيف تصرفت ... بقاصمة تنقد منها الحيازم [٣]

فهو يطلب البكاء على مدينته التي عظم بها الخراب وأصابتها الفجيعة وفاضت الدموع بالعيون ولا سبيل من ذلك إلا شكوى إلى الله فيصف تلك الحرب المجوسية

(١) عبد الله بن محمد: هو أبو الصخر أديب وشاعر ذكره أحمد بن فرج الجياني صاحب كتاب الحدائق (ت:٣٦٠هـ). ينظر: بغية المتلمس، ٤٣٢/٢.
(٢) بغية المتلمس، ٤٣٢/٢.
(٣) المقتبس من أنباء أهل الأندلس، لابن حيان القرطبي، تحقيق: محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م، ٣/٣-٣/٤.

التي فرقت الشمل ويستعتب الدهر وحوادثه على ما أصاب تلك المدينة ونلمس في تلك الأبيات عاطفة حزينة وأحاسيس مرهفة أضناها الألم والأسى.

ويطالعنا ابن هانئ بأبيات شعرية من قصيدة مديح للمعز لدين الله مطالبا المسلمين بالنظر إلى تلك الديار التي أخذت تهوي في يد الروم أيام قوتهم وضعف دولة المعز فأثارت مشاعر ابن هانئ تلك الظروف ودفعت به إلى الرثاء المفجع المؤثر حينا واليأس حينا آخر محاولا في رثائه لتلك الأماكن استنهاض الهمم واستثارة النفوس حيث قال:

يا ويلكم أفما لكم من صارخ ... إلا بثغر ضاع أو دين عفا
فمدينة من بعد أخرى تستبى ... وطريقة من بعد أخرى تقتفى
حتى لقد رجفت ديار ربيعة ... وتزلزلت أرض العراق تخوفا
والشام قد أودى وأودى أهله ... إلا قليلا والحجاز على شفا
فعجبت من أن لا تميد الأرض من ... أقطارها وعجبت أن لا تخسفا
أيسر قوما إن مكة غودرت ... بمجر جيش الروم قاعا صفصفا
أو أن ملحود النبي ورمسه ... بمدارج الأقدام ينسف منسفا
فتربصوا فالله منجز وعده ... قد آن للظلماء أن تتكشفا (١)

إنها صرخة استنهاض للهمم بعد أن رأى توسع الروم في مختلف البلاد فيحاول إيقاظ العرب من نومهم، فالشام قد وقعت بأيديهم والحجاز على طريق الهلاك أما مكة والمدينة فهي في طريق الخطر، ثم يلجأ إلى الله منجز وعده وهازم الأحزاب وحده.

وأكثر ما أثار الشجون وهز النفوس هي قصور بني أمية التي أصابها الدمار والخراب بعد أن نالت من ترف وشموخ وعز ما لا يضاهيها مكان آخر، فقد فجرت الحزن والأسى في قلوب الشعراء فأنشدوا فيها العديد من قصائد الرثاء فهذا غالب بن

(١) ديوان ابن هانئ، ٩٠-٩١.

أمية [١] يرثي قصور بني أمية عندما جلس على نهر قرطبة وأصرف العنان إليها فأثارت الشجون وحركت مكامن نفسه وأخذ يقول:

| | |
|---|---|
| يـا قصـر كـم قـد ألفـت مـن ملـك | دارت علـــيهم دوائـــر الفلـــك |
| يـا قصـر كـم قـد حويـت مـن نعـم | دارت لقـي فـي عـوارض السـكك |
| أنـــف بمـــا شـــئت كـــل متخـــذ | يعـــود يومـــا لحـــال متـــرك |
| أيـــن ملـــوك الشـــام عـــدهم | فكـــل قصـــر لهـــم بـــلا ملـــك |
| وقـــل لـــدنيا إليـــك مقبلـــة | تختـال فـي خزهـا وفـي الفنـك [٢] |

فهو يرثي ذلك القصر الذي تقوض بناؤه وأصبح خاليا من الملوك فيرى أن على الإنسان أن لا يغتر بمتاع الحياة الدنيا وزخرفها فما هو إلا سراب خادع سرعان ما يزول، إنه شعور حزين لا يمكن أن يدركه شخص عادي، لأن هذا الشعور لا يدركه إلا الشعراء.

إن التركيز على تلك الأماكن في الشعر يعطيه عمقا وغزارة وخصوبة انتمائية وطنية توسع في دائرة الانتماء في نفس الإنسان وتقوي من أبنية الوعي الانتمائي لديه وتشحذ في داخله مشاعر الحس القومي[٣].

أما قرطبة فـ((قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها وآثارهم بها ظاهرة))[٤] فقد ضاعت هي الآخرة وأصابها الخراب والدمار فرثاها الشعراء بقصائد تتفطر لها القلوب كيف لا وهي عاصمة الخلافة وجنة الأندلس الفيحاء، فبدأ الشعراء ينظمون القصائد والمرثيات وكانوا ما بين حزين متألم ويائس قانط ومنتظر متأمل ويبكيها أحيانا ويتفجع عليها أحيانا أخر، فهذا شاعر من شعراء الأندلس يبكي

(١) غالب بن أمية بن غالب الموزوري، ٣٨٩هـ، يكنى بأبي العاص، وسكن قرطبه، أديب شاعر. ينظر: جذوة المقتبس، ٥١٦/٢؛ بغية المتلمس، ٥٧٦/٢.
(٢) جذوة المقتبس، ٥١٦/٢؛ بغية المتلمس، ٥٧٦/٢.
(٣) ينظر: جماليات المكان في شعر عرار، ١٩١.
(٤) الروض المعطار، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٣٧م، ٤١.

قرطبة ويقول:

أبـــك علـــى قرطبـــة الـــزين ... فقـــد دهتهـــا نظـــرة العـــين
أنظرهـــا الـــدهر بأســـلافه ... ثـــم تقاضـــى جملـــة الـــدين
كانـت علـى الغايـة مـن حسـنها ... وعيشـــها المســـتعذب اللـــين
فـانعكس الأمـر فمـا أن تـرى ... بهـــا ســـرورا بـــين اثنـــين
فأغـد وودعهـا وسـر سـالما ... إن كنـت أزمعـت علـى البـين[1]

فهو يرى أن ما أصابها من دمار وخراب مرده إلى نظرة العين الحسودة التي وقعت عليها بعدما كانت غاية الحسن والجمال، إنها ((بكاء الماضي السعيد واستعادة ذكراه واستعراض الحاضر المرير المحزن من شكوى ظروف الدهر وعواديه))[2].

فسجل الشعر ما أصاب ذلك المكان من خراب ودمار وأكثر الشعراء من التوجع والأسى والألم وحملوا الزعامات الهزيلة مسؤولية ما حل لقرطبة فهذا ابن عصفور الحضرمي[3] يقول:

أضـعتم الحـزم فـي تـدبير أمـركم ... سـتعلمون معـا عقبـى البـوار غـدا
فلـو رأيـتم بعـين الفكـر حـالكم ... بكيـــتم بـــدم إن دمـــتم بـــددا
لكـن سـبل العمـى أعمـت بصـائركم ... فألبســـتكم ثيابـــا للبلـــى جـــددا
يـا أمـة هتكـت مسـتور سـوءتها ... ما كل من ذل أعطى بالصغار يدا
فـي سـورة الحشـر آيـات مفصـلة ... فـي شـأنكم أنزلـت لـم تعـدكم أحـدا
فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملت ... جمـيعكم محنـة لا تنقضـي أبـدا [4]

(١) البيان المغرب، ١١٠/٣.
(٢) رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي، د. مهجة أمين الباشا، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، طبعة ١، ٢٠٠٣م، ١٩.
(٣) هو أحمد بن عمر بن عبد الله الحضرمي الخطيب بجامع إشبيلية يكنى بأبي القاسم من أهل العلم والأدب وله أشعار في رثاء قرطبة (ت:٤١٠هـ). ينظر: الحلة، ٦٤/١.
(٤) البيان المغرب، ١١٠/٣.

فبكى شعراء الأندلس مدينتهم الغالية ((موطن أولي العلم والذهى ... وينبوع تفجر العلوم وقبة الإسلام وحضرة الأنام ودار صوب القلوب)) [١] فهذا ابن دراج يرثي الحواضر الأندلسية وبأسلوب شجي ومؤثر محاولا أن يثير النفوس ويحرك الكوامن ويستنهض الهمم ويصف لنا كيف أصابها الحزن بعد السرور والجلاء، والنقمة بعد النعيم ومن ليل قصير إلى ليل طويل محاولا نقل تلك المأساة المؤلمة والصراعات المدمرة إلى علي بن حمود [٢] الذي امتدحه في هذه القصيدة فلنستمع لقوله:

| | |
|---|---|
| ومن دوننا أنسات الديار | نهاب الحمى موحشات الطلول |
| يهيج فيها زفير الرياح | مدامع شجو السحاب المخيل |
| وتلطم فيها أكف البروق | خدود عراص علينا ثكول |
| تظلم من هاطلات الغمام | وتشكو من الريح جر الذيول |
| معاني السرور لبسن الحداد | على لابسات ثياب الذهول |
| خطيبات خطب النوى والمهور | مهارى عليها رحال الرحيل |
| فمن حرة جليت بالجلاء | وعذراء نصت بنص الذميل |
| ولا حلي إلا جمان الدموع | يسيل على كل خد أسيل |
| فبذلن من بعد خفض النعيم | بشق الحزون ووعث السهول |
| ومن قصر الليل تحت الحجال | بهول السرى تحت ليل طويل [٣] |

فهو يبكي ويتأسف على ما أصاب تلك الحواضر والدمن من دمار وما فعلت بها أيدي الزمان وهذا الشعر مرده إلى ولوع النفس بتلك الديار وتذكر أحبابها.

أما ابن شهيد ((شيخ الحضرة العظمى وفتاها ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها،

(١) نفح الطيب، ٩/٢.
(٢) هو علي بن حمود بويع بباب السدة من قصر قرطبة ثاني اليوم الذي أخذ بثأر هشام المؤيد، لقب بالناصر لدين الله وهو مفتوح الباب يقيم الحدود. ينظر: البيان المقرب، ١٢٢/٣.
(٣) ديوان ابن دراج، ٧٨.

وينبوع آياتها ومادة حياتها))[1] هو الآخر يبكي قرطبة ذلك المكان الذي ضمه بين حناياه فألهمه العلم والدراية فيبكيها بكاء موجع ومؤثر وبنغمة حزن وأسى حيث قال:

ما في الطلول من الأحبة مخبر ... فمن الذي عن حالها تستخير
لا تسألن سوى الفراق فإنه ... ينبيك عنهم أنجدوا أم اغوروا
جار الزمان عليهم فتفرقوا ... في كل ناحية وباد الأكثر
جرت الخطوب على محل ديارهم ... وعليهم فتغيرت وتغيروا
فدع الزمان يصوغ في عرصاتهم ... نورا تكاد له القلوب تنور
فلمثل قرطبة يقل بكاء من ... يبكي بعين دمعها متفجر
دار أقال الله عثرة أهلها ... فتبربروا وتغربوا وتمصروا
في كل ناحية فريق منهم ... متفطر لفراقها متحير [2]

فهو يسأل عن حال قرطبة فما يجد فيها إلا الفراق ولعب الزمان بها فيرى أن البكاء لا يحق إلا لقرطبة تلك الدار التي تفرق أهلها وأصبحوا في كل ناحية وصوب.

إن الأندلس قد أصابها خطب عظيم فقد محيت رسومها وطمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى فصارت صحارى مجدبة بعد العمران وفيافي موحشة بعد الأنس، لقد ازداد ابن شهيد أسفا على قرطبة وما آلت إليه حالها فتعود به الذاكرة إلى الوراء متذكرا أماكنها المؤلفة التي قضى فيها أجمل الأيام فيذكر ساحاتها الواسعة وأنهارها العذبة ورياضها الزاهية وغيرها من الأماكن فألهبته العواطف وقذفت به في بحار هواها فراح يقول:

يا جنة عصفت بها وبأهلها ... ريح النوى فتدمرت وتدمروا
آسى عليك من الممات وحق لي ... إذ لم نزل بك في حياتك نفخر
كانت عراصك للميمم مكة ... يأوي إليها الخائفون فينصروا

(١) الذخيرة، ١٩١/١.
(٢) ديوان ابن شهيد الأندلسي، ١٠٩-١١٠.

يـــا منـــزلا نزلـــت بـــه وبأهلـــه ... طيـــر النـــوى فتغيـــروا وتنكـــروا
جـــاد الفـــرات بســـاحتيك ودجلـــة ... والنيـــل جـــاد بهـــا وجـــاد الكـــوثر
وســـقيت مـــن مـــاء الحيـــاة غمامـــة ... تحيـــا بهـــا منـــك الريـــاض وتزهـــر
أســـفى علـــى دار عهـــدت ربوعهـــا ... وظباؤهـــــا بفنائهـــــا تتبختـــــر
أيـــام كانـــت عـــين كـــل كرامـــة ... مـــن كـــل ناحيـــة إليهـــا تنظـــر
أيـــام كـــان الأمـــر فيهـــا واحـــدا ... لأميرهـــا وأميـــر مـــن يتـــأمر
أيـــام كانـــت كـــف كـــل ســـلامة ... تســـموا إليهـــا بالســـلام وتبـــدر
حزنـــي علـــى ســـرواتها ورواتهـــا ... وثقاتهـــــا وحماتهـــــا يتكـــــرر
نفســـي علـــى آلائهـــا وصـــفائها ... وبهائهـــــا وســـــنائها تتحســـــر
كبـــدى علـــى علمائهـــا حلمائهـــا ... أدبائهـــــا ظرفائهـــــا تتفطـــــر (١)

فقد استطاع ابن شهيد أن يرسم لنا صورة قرطبة الحزينة بعد أن كانت جنة الدنيا فعصفت بها وبأهلها ريح النوى فيأسى عليها بعد أن كانت ساحتها للميمم مكة يؤوي إليها كل خائف ويأسف عليها مرة أخرى عندما يذكر ظباؤها و هي تتمايل وتتبختر بساحاتها، وأيام كانت كل عين ناظرة إليها فهو حزين عليها وعلى علمائها ورواتها وأدبائها وبقلب متفطر كثير الأسى والحزن.

لقد استطاع الشاعر الأندلسي أن يرثي تلك الأماكن والديار بأسلوب شعري حزين فتفرد إليه الأمر وجاد القول حتى ألمَّ بأروع قصائد الرثاء المتمثلة بحزن عميق وألم وفراق، وجسدوا في قصائدهم صدق العواطف ورهافة الإحساس وبلوغ المراد والإجادة في الصواب.

٢ - **المكان والفخر**.

إن للمكان دورا فاعلا في تأجيج الشعراء على التفاخر، بما أن الفخر هو التغني

(١) ديوان ابن شهيد الأندلسي، ١٠٩-١١٠.

بالفضائل والمثل العليا والزهو بالفعال الطيبة فقد أجاد شعراء الأندلس بذلك.

وأول من يطالعنا من شعراء هذه الحقبة هو عبد الله بن الشمر [١] (ت:٢٣٥ هـ) الذي أشاد بجامع قرطبة مفتخرا به بعد أن بناه عبد الرحمن الداخل حيث يقول فيه:

بنى مسجدا لم يبن لله مثله ... وهل مثله في قبضة الله مسجد
سوى مبتنى الرحمن والمسجد الذي ... بناه نبي المسلمين محمد
له عمد خضر وحمر كأنما ... تلوح يواقيت بها وزبرجد [٢]

إنه المسجد الذي لم يبن مثله سوى مبنى الرحمن ومسجد الرسول محمد ﷺ فهو يفتخر بذلك المسجد وبأعمدته التي تلوح وتظهر لنا كأنها ياقوت وزبرجد.

ويطالعنا العتبي[٣] بأبيات جميلة مفتخرا بها بنصر الأمير محمد في معركة وادي سليط وهي من أمهات الوقائع حيث يقول:

سائل عن الثغر الصوارم تصدق ... واستنطق السمر العوالي تنطق
تركت وقائع في الثغور وقد غدت ... مثلا بكل مغرب ومشرق
وأداخ أرض المشركين بوقعة ... تركتهم مثل الإشاء المحرق
جادت عليهم حربه بصواعق ... تركتهم مثل الرماد الأزرق [٤]

هذه الأبيات امتدح فيها الأمير محمدا مفتخرا بما حققه من انتصارات في وادي سليط، ومحاولا إيقاع صورة حوارية من خلال قوله (سائل عن الثغر) أي سائل عن

(١) هو عبد الله بن الشمر بن نمير كنيته أبو محمد (ت:٢٣٥ هـ). ينظر: تاريخ علماء الأندلس، ٣٩٤/١؛ جذوة المقتبس، ٣٧١/١.
(٢) عبد الله بن الشمر شاعر أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ونديمه، د. حياة قارة، مجلة الذخائر، ع٥، السنة الثانية، ٢٠٠١م، ١٢٥.
(٣) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عتبة الأندلسي يعرف بالعتبي، منسوب إلى عتبة بن أبي سفيان رحلة إلى المشرق، وألف كتابا في الفقه. ينظر: بغية الملتمس، ٧٠/١؛ المغرب، ١٣٤/١.
(٤) البيان المغرب، ١١٢/٢.

هذا البطل ذلك المكان، بأنه ترك في تلك الثغور مثلا لكل من في الشرق والغرب.

وعلى ما يبدو أن أكثر شيء افتخر به الأندلسيون هو البناء فحتى الأمراء كانوا يتفاخرون به فهذا عبد الرحمن الناصر يفتخر بما قام به من بناء وما شيد من عمران حيث يقول:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ... ملك محاه حادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان [1]

فهو يحاول من خلال هذه الأبيات أن يقيم شيئا يخلد له التاريخ مستمدا هذه النظرة من خلال ما تركه الفراعنة من أهرام شاخصة في مصر، و هذا دليل على عظمة شأن الملوك.

وممن أشاد ببناء عبد الرحمن الناصر هو وزيره عبيد الله بن إدريس[2] (ت:٣٥٢هـ) حيث يقول:

سيشهد ما شيدت أنك لم تكن ... مضيعا وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى ... و بالزهرة الز هراء للملك والعليا [3]

فالجامع المعمور والزهرة والزهراء هي خير شاهد على ما شيدته من صروح الحضارة الأندلسية.

أما أبو المطرف بن أبي الحباب [4] فقد صدع أبيات مفتخرا فيها بالمنية

(١) المغرب في حلى المغرب، ١/١٧٩-١٨٠.
(٢) عبيد الله بن إدريس كنيته أبو عثمان من أهل قرطبة كان مفتتنا في ضروب العلم وكان للشعر أشهر أدواته، وكان عالما متواضعا (ت:٣٥٢هـ)، ينظر: تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، ١/٤٣٠.
(٣) المغرب في حلى المغرب، ١/١٨٠.
(٤) هو أبو المطرف بن أبي الحباب كان أديبا شاعرا في أيام المنصور بن أبي عامر، ينظر: جذوة المقتبس، ٢/٦٣٦، بغية الملتمس، ٢/٧٠٨.

العامرية وهي المدينة التي أسسها المنصور محمد بن أبي عامر في سنة ٣٦٩ هـ وتقع إلى جانب مدينة الزهراء[١] وهذه الأبيات قالها عندما وقف على روضة فيها ثلاث سوسنات ثنتان منها قد تفتحتا وواحدة لم تفتح بعد فقال:

لا يـوم كـاليوم فـي أيامنـنـا الأول ... بالعامريـــة ذات المـــاء والظلـــل
مـا أن يبـالي الـذي يحتـل سـاحتها ... بالسـعد ألا تحـل الشـمس فـي الحمـل
كأنمـا غرسـت فـي سـاعة وبـدا الـ ... ـسوسان مـن حينـه فيهـا علـى عجـل
أبـدت ثـلاث مـن السوسـان مائلـة ... أعنـا فهـن مـن الإعيـاء والكسـل
كأنهـا راحـة ضـمت أناملهـا ... من بعد ما ملئت جودك الحضل [٢]

أما قرطبة فهي قبة الإسلام ذاع لها من الصيت والشهرة ما لم تصل إليه مدينة أخرى فهي ((من أشهر مدن الأندلس))[٣] قال عنها ابن حوقل التاجر الموصلي: ((وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة وليس لها بالمغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة)) [٤].

لذلك أخذ شعراء الأندلس يتفاخرون بتلك البقعة الكريمة وممن جاء بذكرها والفخر بها أبو محمد بن عطية [٥] حيث قال:

بـأربع فاقـت الأمصـار قرطبـة ... مـنهن قنطـرة الـوادي وجامعهـا
هاتـان ثنتـان والزهـراء ثالثـة ... والعلـم أكبـر شـيء وهـو رابعهـا [٦]

إنها رمز للمكان ببنائها ورمزا للتاريخ والحضارة بعلمها وعلمائها.

(١) ينظر: قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس، د. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م، ٢١٣/١.
(٢) جذوة المقتبس، ٦٣٦/٢؛ وينظر: نفح الطيب، ٥٨٢/١.
(٣) نفح الطيب، ١٥٣/١.
(٤) معجم البلدان، للإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، دار الفكر، مج٣٢٤/٤.
(٥) أبو محمد بن عطية، ينظر ترجمته في الباب الرابع من: نفح الطيب، ٦٧٩/١.
(٦) نفح الطيب، ١٥٣/١.

أما ابن العريف النحوي[1] فيذكر أنه دخل على المنصور بن أبي عامر وهو بالعامرية فأنشد أبيات مفتخرا بذلك المكان ومادحا الأمير حيث قال:

فالعامرية تزهي على جميع المباني
وأنت فيها كسيف قد حل في غمدان [2]

وعلى أثر هذه الأبيات قام صاعد البغدادي[3] وكان مناقضا له فقال اسعد الله تعالى الحاجب الأجل ومكن سلطانه هذا الشعر الذي قاله قد أعده وروى فيه، أقدر أن أقول أحسن منه ارتجالا ... فقال له قل:

يا أيها الحاجب المعتلي على كيوان
ومن به قد تناهى فخار كل بمان
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان [4]

إن هذه الأبيات تشير وبشكل واضح إلى أن تلك الأماكن قد شغلت شعراء الأندلس فأنشدوا بها وتفاخروا بالقول فيها، ولصاعد اللغوي أبيات أخرى في الزاهرة فهو يفتخر بها بأنها غزوة بقلوب الشرك فهي نصر عظيم ومكان زاه على مدى الدهر والسنين، حيث يقول:

يا أيها الملك المنصور ومن يمن والمبتني بيتا غير الذي أنتسبا

(١) ابن العريف النحوي: هو الحسن بن الوليد، يكنى بأبي القاسم، ويعرف بابن العريف النحوي، إمام في العربية، أستاذ في الأدب، كان يحضر مجالس المنصور بن أبي عامر. ينظر: جذوة القبس، ٣٠٠/١؛ بغية الملتمس، ٣٢٩/١.

(٢) نفح الطيب، ٥٨٢/١-٥٨٣.

(٣) هو صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادي اللغوي، كنيته أبو العلاء ورد من المشرق إلى الأندلس في أيام هشام بن الحكم المؤيد وولاية المنصور بن أبي عامر في حدود الثمانين وثلاثمائة وكان أصله من ديار الموصل، كان عالما باللغة والأدب وحسن الشعر. ينظر: جذوة المقتبس، ٣٧٣/١؛ الذخيرة، ق٤، مج١/١.

(٤) نفح الطيب، ٥٨٣/١.

بغـزوة فـي قلـوب الشـرك رائعـة ... بـين المنايـا تنـاغي السـمر والقضـبا
أما ترى العين تجري فوق مرمر ها ... هـوى فتجـري علـى أحفافهـا الطربـا
أجريتهـا فطمـا الزاهـي بجرينهـا ... كمـا طمـوت فسـدت العجـم والعربـا
تخـال فيـه جنـود المـاء رافلـة ... مسـتلئمات تريـك الـدرع واليلبـا
تحفهـا مـن فنـون الأيـك زاهـرة ... قـد أورقـت فضـة إذ أورقـت ذهبـا
لا يحسـن الـدهر أن ينسـى لهـا مـثلا ... ولـو تعنـت فيهـا نفسـه طلبـا (١)

أما ابن شهيد فهو الآخر يفتخر بقرطبة معبرا عن حبه لها فهي على الرغم من كونها عجوزا بالية أخافها الخراب والدمار إلا أنه يرى فيها ما لم ير في مكان آخر حيث يقول:

عجـوز لعمـر الصـبا فانيـة ... لهـا فـي الحشـا صـور الغانيـة
زنـت بالرجـال علـى سـنها ... فيـا حبـذا هـي مـن زانيـة

تريـك العقـول علـى ضـعفها ... تـدار كمـا دارت السـانية
فقـد عنيـت بهواهـا الحلـو ... م فهـي براحتهـا عاتيـة
تقاصـر عـن طولهـا قونكـة ... وتبعـد عـن غنجهـا دانيـة
ترديـت مـن حـزن عيشـي بهـا ... غرامـا فيـا طـول أحزانيـه (٢)

لم يكن هذا الفخر بتلك الأماكن شيئا اعتباطيا وإنما جاء نتيجة العواطف المنفعلة التي ألهبتها مشاعر الحب والفخر لتلك الأماكن لذلك جاءت أبيات شعراء الأندلس بمشاعر دافئة وعواطف صادقة، وظلت تلك الأماكن بصورها ومعالمها أشبه بالينبوع الذي يستمد منه ذلك الفخر، وهيأت جوا شعريا مفعما بالارتياح منح الشعراء

(١) نفح الطيب، ١/٥٨٠-٥٨١.
(٢) ديوان ابن شهيد، ١٦٨.

القدرة على الإبداع والتصوير بكل ما يحيط به.